

الهدايات المتعلقة بإحسان العمل في سورة الملك

Guidance regarding excelling in deeds, from Surat Al-Mulk

رضوان جمال الأطرش²

محمد طيب خالد حسين¹

Radwan Jamal Elatrash Muhammad Tayyib Khaled Hussein

ملخص البحث:

تناول هذا البحث الهدايات المتعلقة بإحسان العمل في سورة الملك، وتتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يكشف عن أهم المقاصد التي احتوت عليها سورة الملك، وهي بلوغ الإنسان درجة إحسان العمل، وإن هذا المقصد من أهم أهداف حياة الإنسان فينبغي على العاقل أن يحمل نفسه عليها، ويحاول الوصول إلى أعلى مراتبها، واعتمدت هذه الدراسة المنهج الاستقرائي وذلك لجمع كل ما يتعلق بحسن العمل والهدايات ذات الصلة بالموضوع، ثم المنهج التحليلي والاستنباطي من خلال التأمل الدقيق في معاني الآيات، ودلالاتها، وإشاراتها واستخلاص المضامين المتعلقة بإحسان العمل، موقعه، مرتبته، أنواعه، مجالاته. ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث: أن سورة الملك بينت أن المطلوب من الإنسان في هذه الحياة هو إحسان العمل، وأشارت إلى أن مرتبة إحسان العمل المطلوب الوصول إليها هي مرتبة الخشية بالغيب. كما عرضت له مجالين مهمين، مجال عبادة التأمل في المخلوقات، ومجال تحويل العادات إلى عبادات.

الكلمات المفتاحية: سورة الملك، الهدايات، إحسان العمل.

Student, Qur'En and Sunnah Department, Kulliyah of Islamic Revealed Knowledge and Human1
International Islamic University Malaysia (IIUM). E-mail: m.ta.ayy@hotmail.com ,Sciences
Associate Professor, Qur'an and Sunnah Department, Kulliyah of Islamic Revealed Knowledge 2
.Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). radwan@iium.edu.my and



Abstract:

This research analyses the guidance regarding excelling in deeds, in Surat Al-Mulk (The Dominion, Chapter 67). The importance of this topic manifests in the fact that this analysis shines a light on the most important of objectives contained in Surat Al-Mulk, which is a person's achieving excellence in their deeds. This objective is from amongst the most important goals in a person's life, so it is imperative that the wise person takes it upon himself and endeavor to attain the pinnacle of excellence. This treatise adopts the method of deduction through a detailed study of the meanings of the verses, its connotations, and its references. Then an analytical approach is used to derive the content connected to excellence of deeds, its places, its grade, its types, and its areas. And among the most important findings of the researcher is that Surat Al-Mulk demonstrates that what is required from a person in this life is the excellence of their deeds. And it shows that the desired level of excellence in one's deeds is achieving the fear of Allah, even in seclusion. Similarly, it presents two important areas: the aspect of worship through contemplation over (the greatness of Allah in) the creation; and the aspect of converting habits into acts of worship and good deeds.

Key words: Surat Al-Mulk, guidance, excellence of deeds.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن سورة الملك: «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي»³، ورتب الأجر العظيم على الاكثار من قراءتها، فقال: «سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية، خاصمت عن صاحبها

3 انظر: عبد بن حميد، المنتخب من مسند عبد بن حميد، مسند ابن عباس رضي الله عنه، ص206، (وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو ضعيف)، وتابعه حفص بن عمر العدني، والحديث يرتقي بسبب هذه المتابعة إلى درجة الحسن لغيره. انظر: تحقيق: مجموعة من الباحثين، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، حاشية المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، (دار العاصمة للنشر والتوزيع من المجلد 1-11: 1419هـ-1998م، دار الغيث للنشر والتوزيع، من المجلد 12-18: 1420هـ-2000م، ط1)، ج15، ص373.

حتى أدخلته الجنة، وهي سورة تبارك»⁴، وعن جابر «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل، وتبارك الذي بيده الملك»⁵.

وعليه، فإن الجنة تتطلب من المرء أن تكون حياته موافقة لما أراد الله عز وجل، ووظائف الحياة كثيرة ما بين حقوق تؤدي، وواجبات تنجز، وأعمال أخرى غيرها تحيط على عمر الإنسان كله، وتفضيل هذه السورة الصغير الحجم، بترتيب الأجر العظيم على المواظبة على قراءتها يدل على اشتغالها على مقاصد عظيمة تنظم حياة الإنسان، وتضبط تصرفه، ولعل أهم هذه المقاصد التي اشتملت عليها السورة مقصد إحسان العمل حيث ذكره الله عز وجل في بداية السورة، وجعل المقاصد الأخرى تابعة له، فجاءت هذه الدراسة المتواضعة لتجيب على الأسئلة التالية:

1. ما موقع إحسان العمل المذكور في سورة الملك؟

2. ما مرتبة إحسان العمل التي حثت السورة على بلوغها؟

3. ما أنواع إحسان العمل التي ذكرتها السورة؟

4. ما أهم مجالات إحسان العمل التي ذكرتها السورة؟

أهمية البحث: تتجلى أهمية هذا الموضوع في الآتي:

- 1- كونه يكشف عن أهم المقاصد التي احتوت عليها سورة الملك، وهي بلوغ الإنسان درجة إحسان العمل.
- 2- إن هذا المقصد من أهم أهداف حياة الإنسان فينبغي على العاقل أن يحمل نفسه عليها، ويحاول وبلوغ درجة الكمال فيه.

4 انظر: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، الروض الداني (المعجم الصغير)، ج1، ص296، وقال الهيثمي في المجمع، ج7، ص127: "رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح".

5 انظر: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، ج5، ص475، وفيه الليث ابن أبي سليم ابن زُئيم، عن أبي الزبير، وليث هذا قال عنه ابن حجر: (اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك)، تقريب التهذيب: رقم، 5685، ص464، ولكنه توبع، انظر: محمد بن رزق بن طهوني، موسوعة فضائل سور وآيات القرآن - القسم الصحيح، الجزء الثاني، (جدة: مكتبة العلم، ط2، 1414 هـ)، ج2، ص49-50.

إحسان العمل هو الهدف من خلق الحياة والموت:

تقرر هذه السورة الكريمة أن المقصد من خلق الموت والحياة أن يكون الإنسان أحسن عملاً، فالحياة دار العمل، وبعد الموت الحساب والجزاء، وهذه الحقيقة من أهم الحقائق التي تعرض لها السورة، ولعل السر في ربط إحسان العمل بخلق الموت والحياة، أن الحياة وقت للقيام بإحسان العمل، والموت هو الداعي إلى اختيار العمل الحسن، قال الزمخشري رحمه الله: "والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه"⁶. ولعلماء السلف في تفسير إحسان العمل المذكور في الآية عدة تعبيرات هي بمثابة التفسير بالمعنى، ففسره بعضهم بالصفات السلوكية ذات الطابع العملي والتطبيقي، رغم ارتباطها الشديد بالقلب، مثل: أتقى الله⁷، أشدكم خوفاً من الله⁸، أروع عن محارم الله⁹، أحسن توكلاً على الله¹⁰، أكثركم شكراً لله¹¹.

-
- 6 أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ)، ج4، ص575.
- 7 قاله مقاتل، انظر: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، (بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422هـ)، ج5، ص159.
- 8 انظر: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: جمع من المحققين، (بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، ج4، ص326، ونسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي غير صحيحة.
- 9 انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ)، ج2، ص359، ونسبه إلى ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو غير صحيح.
- 10 قاله سهل، انظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج9، ص356.
- 11 قاله الضحاك، انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، 1384هـ)، ج9، ص9.

وفسره بعضهم بالصفات الجسمية، وعبروا عنها ب: أحسن عقلاً¹²، وأتم عقلاً¹³. وفسره بعضهم بآثاره، فجاء تعبيرهم: أبصركم بعيوب نفسه¹⁴، وأشدكم ذكراً للموت، وأحسنهم لها استعداداً¹⁵، وأزهد في الدنيا¹⁶، وأترك لها¹⁷. وفسره بعضهم بنتائجه، فقالوا: أطوعكم الله¹⁸، وأسرع إلى طلب رضاه¹⁹، وأتبع لأمره ونهيه²⁰.

وهذه التفسيرات الجزئية كلها مهمة، وكلها تمثل جانباً من الجوانب التي تحتوي عليها كلمة: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لأنه بقدر اجتماع هذه الصفات في الإنسان يكون كماله في إحسان العمل، فالوصول إلى أعلى مراتب التقوى، وشدة الورع عن الحرام، والإكثار من شكر الله، وحسن التوكل جانب من إحسان العمل، كما أن الاتصاف بإحسان العمل يتطلب حسن العقل وتمامه، فناقص العقل لا يتصور منه إحسان العمل واتباقه، ومن لوازم إحسان العمل أن يكون المرء أبصر بعيوب نفسه، ويكون أشد الناس ذكراً للموت؛ لأنه كلما كان أشد ذكراً للموت كان أكثر اجتهاداً في إحسان العمل، والزهد في الدنيا، وتركها أيضاً من لوازم إحسان العمل إذ لا يمكن الجمع بينهما؛ إلا إذا كان جامعاً لها لأجل

12 انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 2، ص 359، ونسبه إلى ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو غير صحيح.

13 قاله قتادة، انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 2، ص 359، ونسبه الواحد في الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج 4، ص 326، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي غير صحيحة.

14 انظر: أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، (السعودية-الرياض: دار الوطن، ط 1، 1418هـ)، ج 6، ص 6، من غير نسبة إلى أحد.

15 قاله السدي: انظر: سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط 1، 1419هـ)، ج 19، ص 226.

16 قاله الحسن وسفيان: انظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ج 2، ص 359.

17 قاله أبو عاصم العسقلاني، انظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن عطية الأندلسي الحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1422هـ)، ج 3، ص 497.

18 انظر: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الأملي الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د. عبد الله التركي، (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1422هـ)، ج 23، ص 118.

19 انظر: الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 23، ص 118.

20 قاله ابن إسحاق، انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج 10، ص 348.



مصلحة الإسلام والمسلمين، كما أن من آثار هذا الإحسان أن يكون المحسن الأسرع في طلب رضى الله، وأتبع لأمره ونهيه، والمرء يحتاج أن يتذكر من هذه الصفات ما يكون هو بحاجة إليها ليتحقق له معنى: أحسن عملاً بكماله، ولعل هذا هو السر في تعدد تفسيرات هذا اللفظ في كلام السلف، فإن لكل مقام مقالاً. وإحسان العمل هو اتقانه، ولا يصل العبد إلى هذه المرتبة إلا إذا كان عمله خالصاً لله مطابقاً للسنة، كما قال فضيل بن عياض رحمه الله: "لَيْبُلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"، قال: أخلصه وأصوبه، قلت: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة²¹. وحكى ابن عطية رحمه الله قول أبيه، فقال: "وكان أبي رضى الله عنه يقول: أحسن العمل أخذ بحق واتفاق في حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه"²².

وعند إمعان النظر في وصف العمل بالأحسن في التعبير القرآني مع أن الابتلاء شامل لجميع العباد الذين منهم المحسن و المسيء، وكان مقتضى ذلك أن تكون المقارنة بين الحسن والقبيح أيضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط، ولكن الله عز وجل أبقى المقارنة بين الحسن والأحسن فقط "لأن المقصود الأصلي هو ظهور كمال إحسان المحسنين وأن الواجب العمل بموجب الحسن بحيث يهتدي كل فرد إلى الإيمان والطاعة وإنما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعف، وأما القبح فبمعزل من الوقوع فضلاً عن أن ينتظم في سلك الغاية للخلق؛ لأنه عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ"²³، وفي هذا تنبيه "على أن المقصود الأقصى من خلق المخلوقات أن يتوسلوا بأحسن الأعمال إلى أجل المثوبات، وتحريضاً لهم على ترك القبائح والمنكرات"²⁴.

21 الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج9، ص356.

22 ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص497.

23 أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط)، ج6، ص9.

24 إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوقي، تفسير روح البيان، (دار إحياء التراث العربي، د.ط)، ج4، ص58.

مرتبة إحسان العمل المطلوب الوصول إليها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:12].

الصفة التي يجب على العبد الاتصاف بها حتى يصل إلى درجة أهل إحسان العمل قد بينها الله عز وجل في سورة الملك نفسها حينما أخبر عن أهل الجنة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:12]، وهي أن يصبح العبد من أهل الخشية بالغيب، ومعنى الغيب: الخشية من الله في الخلوات، وعند الغيبة عن العيان²⁵.

واختلفت عبارات المفسرين في معنى الغيب على أقوال كثيرة، فقال بعضهم: الغيب هو الله سبحانه. وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشرط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط، والميزان، والجنة، والنار. قال ابن عطية بعد ذكر هذه الأقوال في معنى الغيب: "وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعه"²⁶.

والمراد بالخشية بالغيب: أنهم يخشون الله، وهو غائب عنهم لم يروه بعد، "فهو سبحانه غائب عن الأبصار، غير مرئي في هذه الدار، غير غائب بالنظر والاستدلال، فهم يؤمنون أن لهم رباً قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يعيرون فيها عن الناس، لعلمهم باطلاعه عليهم"²⁷.

ويخشون عذابه ولم يروه، وهو عذاب يوم القيامة، ويوم الموت، ويوم القبر، والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار، ومعنى الخشية هنا: أنهم أخبروا بالحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فأمنوا بذلك، وخشوا ربهم فيه فيخافون هذا

25 انظر: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م)، ج22، ص291.

26 ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج1، ص84.

27 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج1، ص164.

العذاب حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم ولم يعاينوه بعد، وهذا دليل الإخلاص والإيمان²⁸. ويخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس كخوفهم له إذا كانوا بين الناس، أي في خلواتهم، أي: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم، وانفرادهم، وفي هذا مدح لأعمالهم الصالحة في الخلوات²⁹. والخشية بالغيب صفة جامعة لعدد من الصفات، بعضها صريحة في نصوص القرآن، وبعضها مستنبطة منها، أذكرها فيما يلي:

الصفة الأولى: التقوى: فقد وصف الله عز وجل المؤمنين بالغيب بهذه الصفة في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 2-3]، وقوله: ﴿وَذَكَرًا لِّلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: 48-49].

الصفة الثانية: إقامة الصلاة: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: 18].

الصفة الثالثة: الخوف من يوم القيامة: كما قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 49].

الصفة الرابعة: إنابة القلب: وقد ذكرها الله عز وجل في قوله: ﴿مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 33].

الصفة الخامسة: الإخلاص: فإن من معاني الغيب الإخلاص، قال ابن عادل رحمه الله: "وقيل: معنى يخافه بالغيب أي: بإخلاص وتحقيق، ولا يختلف الحال بسبب حضور واحد أو غيبته، كما في حق المنافقين الذين إذا ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14]"³⁰.

28 انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج5، ص340، وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج3، ص193، وإسماعيل حقي، تفسير روح البيان، ج10، ص66.

29 انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج5، ص340.

30 ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ج7، ص514.

الصفة السادسة: البراءة من الرياء: وهو خوف الله إذا كان غائباً عن الناس، يقول ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله"³¹، وقال ابن عاشور رحمه الله: "والغيب: ما غاب عنك، أي الذين يخشون ربه في خلواتهم وعند غيبتهم عن العيان، أي الذين آمنوا حقاً غير مرئيين أحداً"³².

الصفة السابعة: الانتفاع بالإنذار: بمعنى: أن الانذار لا ينفع إلى فيهم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر:18]، قال الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنما تنذر يا محمد الذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به، وتصديقهم لك فيما أنبأتم عن الله؛ فهؤلاء الذين ينفعهم إنذارك، ويتعظون بمواعظك، لا الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون"³³.

الصفة الثامنة: الوصول إلى مرتبة الإحسان: وهي المرتبة التي جعلها الله عز وجل هدف الحياة في سورة الملك، يقول أبو زهرة رحمه الله: "ويخشونه وهو غائب عنهم، علموه بالعقل والنقل فهم يعبدونه كأنهم يرونه وهذا هو الإحسان في العبادة، وهو حقيقة الخشية"³⁴. ولعظمة الاتصاف بصفة الخشية بالغيب أثنى الله عز وجل على المتصفين بها، يقول ابن عاشور رحمه الله عند بيان سبب ذكر كلمة الغيب في قوله تعالى: ﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:94]: "وفائدة ذكره أنه ثناء على الذين يخافون الله، أثنى عليهم بصدق الإيمان وتنور البصيرة، فإنهم خافوه ولم يروا عظمتهم"

31 أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ)، ج8، ص179.

32 ابن عاشور، التحرير والتنوير ج22، ص291.

33 الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج19، ص355.

34 محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، زهرة التفاسير، (دار الفكر العربي، د.ط)، ج9، ص4879.



وجلاله ونعيمه وثوابه، ولكنهم أيقنوا بذلك عن صدق استدلال، وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسي: «إِنَّهُمْ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْني فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْني»³⁵.

أنواع إحسان العمل المذكورة في السورة.

الإيمان بالله: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الملك: 29]. نجد في سورة الملك تلقينا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن للكفار إيمانه، وإيمان الذين معه من المؤمنين بالله، والمراد: آمننا ولم نكفر كما كفرتم³⁶، لأن الإيمان أساس لقبول العمل الحسن: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 94]، وهو أخص صفات المحسنين، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف: 30]، يقول الأخفش رحمه الله في الآية الكريمة: "كان في معنى: لا نضيع أجورهم؛ لأنهم ممن أحسن عملاً"³⁷. ولهذا "فإن من أحسن عملاً لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾"³⁸، وأما "من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط"³⁹، وذلك لأن الحسن في العمل عند فقدان الإيمان صوري لا حقيقة له، لأجل ذلك حذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من إحباط عمله على افتراض انعدام الإيمان بارتكاب الشرك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

35 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص40.

36 انظر: الرمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج4، ص583.

37 أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، معاني القرآن للأخفش، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراة، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1411 هـ - 1990 م)، ج2، ص430.

38 ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418 هـ)، ج3، ص280.

39 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج10، ص395.

وما سبق يدل:

1. أن الحسن في العمل منوط بالإيمان بالله، وأما ما يظهر من الحسن بعض في أعمال الكفار فهو ليس حسناً في مآلاته، فلا ينبغي الاعتراض به.
 2. أن التعبير بأفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]، وكذلك اشتراط الإيمان يدلان على أن المفاضلة بين الحسن والأحسن، وليس بين الحسن والقبیح؛ لأنه لا يتصور قبح مع إيمان.
 3. أن اشتراط الإيمان في أحسن عملاً يدل على أن عمل الكافر هو أقبح الأعمال.
 4. أن اشتراط الإيمان في الأحسن عملاً لا يناقض صدور عمل حسن من الكافر، لأنه لا منافاة بين الأقبیح عملاً وبين صدور بعض الأعمال الحسنة منه.
 5. أن الله تعالى لم يخلقنا عبثاً، بل خلقنا لعبده وحده لا شريك له، يدل على ذلك الجمع بين قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، وبين ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]⁴⁰.
- التوكل على الله والتسليم له: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: 29].
- التوكل على الله هو: "الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس"⁴¹، وقال ابن عاشور رحمه الله: "التوكل انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله راجياً الإعانة ومستعيذاً من الخيبة والعواقق، وربما رافقه قول لساني وهو الدعاء بذلك"⁴². وقد قرن الله عز وجل في هذه السورة بين التوكل، والإيمان، وكثيراً ما يقرن القرآن بين التوكل، والعبادة، والإيمان، يقول ابن كثير رحمه الله: "وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا

40 انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص27.

41 علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت - لبنان: دار الكتب العلميّة، ط1، 1403هـ)، ص: 70.

42 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص151.

بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿[الملك: 29]﴾، وقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9]، وأشبهه ذلك من الآيات⁴³؛ لأن التوكل الحقيقي ما كان سببه الإيمان بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84]، لذلك أحب أهله، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، فالتوكل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظيمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدب عظيم مع الخالق يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله⁴⁴.

ووفي المقابل هناك توكل بمعناه في اللغة: فهو إظهار العجز والاعتماد على الغير⁴⁵، وهو بهذا المعنى يشمل توكل المخلوق على مخلوق مثله، وهو دأب الكافرين كما قال الله عز وجل: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: 20]، قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، منكرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه"⁴⁶. ولأجل ذلك جاء تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يصرح لأهل الكفر بأنه والمؤمنون متوكلون على الله عز وجل لا على غيره، قال الزمخشري رحمه الله: "﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً لم تتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم"⁴⁷.

ولعل هذا هو السر في اختلاف التعبير بين قوله تعالى: ﴿أَمَّنَّا بِهِ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، حيث جاء الأول على الأصل المعروف وهو تأخر المتعلق على الفعل في ﴿أَمَّنَّا بِهِ﴾ لأن الكفار لم يكونوا مؤمنين، فكان المقصود: بيان إيمان أهل الإيمان، بينما جاء الآخر على خلاف الأصل بتقديم المتعلق على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛

43 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص383، و انظر: ج4، ص288.

44 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص152.

45 انظر: أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (دار الهداية، د.ط)، ج31، ص98.

46 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص181.

47 الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج4، ص583.

لأن المقصود هنا ليس إثبات توكل المؤمنين على الله فقط، بل مع إثباته إثبات أن توكل المؤمنين هو التوكل الصحيح، وأما توكل الكفار فهو توكل المغرورين ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك:20]، ولأجل إثبات هذا المعنى جاء تقديم متعلق الفعل عليه للدلالة على الاختصاص المفيد هذا المعنى، قال أبو السعود رحمه الله: "وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا" لا على غيره أصلاً لعلنا بأن ما عداه كائناً ما كان بمعزل من النفع والضرر⁴⁸، وقال ابن عاشور رحمه الله: "...بخلاف قوله: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأن التوكل يقتضي منجياً وناصرًا، والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل على ما أنتم متكلون عليه، بل على الرحمن وحده توكلنا"⁴⁹.

ويلاحظ في هذه السورة أنه اجتمع فيها مضمون التوكل: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [سورة الملك:29]، مع الأمر بالمشي في الأرض، والأكل من رزق الله الدال على الأمر باتخاذ الأسباب: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك:15]، وهذا يدل على أن التوكل على الله ليس مناف لاتخاذ الأسباب، يقول ابن عاشور رحمه الله موضحاً هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159]: "وبذلك يظهر أن قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ دليل على جواب إذا، وفرع عنه، والتقدير: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فَبَادِرٌ وَلَا تَتَأَخَّرُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، لَأَنَّ للتأخّر آفاتٍ، والتردد يضيّع الأوقات، ولو كان التوكل هو جواب إذا لما كان للشورى فائدة؛ لأنّ الشورى كما علمت لقصد استظهار أنفع الوسائل لحصول الفعل المرغوب على أحسن وجه وأقربه، فإنّ القصد منها العمل بما يتضح منها، ولو كان المراد حصول التوكل من أوّل خطور الخاطر، لما كان للأمر بالشورى من فائدة. وهذه الآية أوضح آية في الإرشاد إلى معنى التوكل الذي حرّف القاصرون ومن كان على شاكلتهم معناه، فأفسدوا هذا الدين من مبناه"⁵⁰.

48 أبو السعود، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج9، ص10.

49 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص55.

50 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص151.

شكر المنعم على نعمه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:23].
لقد عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بأن الله فعل ذلك بكم، لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك⁵¹، وقال مقاتل: يعني أنهم لا يشكرون رب هذه النعم ويوحدونه⁵²، وهذا التفسير يقتضي أن يكون المخاطبون بهذه الآية هم الكفار، وأسلوب الآية وسياقها يؤكدان ذلك، فأما الأسلوب: فالتلقينات في السورة مخاطب بها الكفار، وبعضها صريح في ذلك⁵³، وأما السياق: فإن سباق الآية في اتخاذهم الشريك لله⁵⁴، وأن لحاقه يتناول موضوع إنكار البعث، وهو موضوع خاص بالكفار، إضافة إلى أن الآيات التي فيها قلة الشكر جاءت في القرآن في معرض الكلام عن وقوع القيامة⁵⁵، وإثبات إعادة الخلق بعد الموت، وهو موضوع خاص بالمشركين، ومع هذا يمكن القول بأن معنى الآية عام في كل من صدر منه عدم الشكر؛ لأن أسلوب الآية يقتضي قلة الشاكرين، وهم المعدوم منهم الشكر، وهؤلاء هم الكفار؛ فلا شكر مع انعدام الإيمان، ويقتضي أيضا قلة الشكر، وهو متصور من المؤمن الغافل الذي أَلْف النعم ولم يستشعر بالمنعم بها؛ فهو شاكر بإيمانه، وغير شاكر على نعم تترى عليه من ربه الكريم، والمطلوب من العبد أن يكون دائم الشكر لله في كل نعمه، ولعل السر في ورود لفظ الشكر بعد تحدث أغلب الآيات في سورة الملك عن مجموعة من النعم الإلهية بيان أن هذه النعم تحتاج إلى شكر الله فيها لتدوم لكم، فإن الله عز وجل لم يكتف بعد بيان النعم بذكر أسباب إزالتها، بل بين أيضا سبب دوامها، وهو شكر الله فيها، ولكن أسلوب الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، واضح في أن أغلب الخلق

51 انظر: الطَّبْرِي، تفسير الطَّبْرِي = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج14، ص315.

52 الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ج3، ص296.

53 مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة الملك:26]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ [سورة الملك:28].

54 وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ نَرَى هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ...﴾ [سورة الملك:20].

55 وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:78]، وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة السجدة:9].

قابلها بعدم الشكر، وهذا يدل على قلة العاملين بمقتضى هدف الحياة الذي بينه الله عز وجل في بداية السورة، وهو إحسان العمل.

مجالات تطبيق إحسان العمل المذكورة في السورة.

إحسان العمل هو هدف الحياة كما بيّن القرآن، وهذا يقتضي أن يصرف الإنسان جل وقته في تحقيق هذا الهدف، ولكن كثيراً من الناس جعل معنى العبادات محصوراً في شعائر محدودة، وفصلوا بينها وبين شؤون الحياة الأخرى، فأصبح تصور العبادة عندهم محدوداً في شعائر معدودة، مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج، وأما أعمالهم الأخرى غير هذه الشعائر فيعتبرونها خارجة عن العبادة، ولما كانت هذه العبادات محددة بالزمان والمكان، فالزكاة والصيام مرتبطتان بالزمان، كما أن الصلاة والحج مرتبطتين بالزمان والمكان، أصبح جل الوقت الذي يصرفه الشخص في كسب القوت لنفسه، ولأهله مثلاً فهو غير داخل في تصورهم في العمل الحسن؛ وعندما يكونون في عملهم لا يكونون في إحسان العمل، وحينما يكونون في مشاغل حياتهم لا يكونون أحسن عملاً، ولا يكونون أحسن عملاً إلا حينما يصلون أو يصومون أو يؤدون زكاة أموالهم، أو يقومون بالحج، وهذه العبادات بلا شك من أجل أنواع العبادات وأعلاها، وعليها مدار الإسلام، ولكن حصر معنى العبادة على هذه العبادات وتحديدتها بما فقط، والفصل بينها وبين شؤون الحياة الأخرى أحدث نوعاً من الانفصام في تصور لُبِّ الإسلام وحقيقته، الأمر الذي أدى إلى ابتعاد كثير من الناس عن تطبيق أحكام الشريعة في كثير من تعاملاتهم، وقضايا شؤون حياتهم اليومية، فجاءت هذه السورة تبطل نظرية الفصل بين العمل والعبادة، وتزيل ما علق في تصور الناس من رواسب فكرية تجعلهم يحصرّون العبادات في أفعال معينة ويحصرّونها في مجالات ضيقة، وبيّنت أن مجال العبادات في الإسلام أوسع من هذا بكثير، والإسلام يعطي للعبادة تصوراً أوسع، ومجالاً أشمل، بل هناك عبادات لا يحتاج الإنسان فيها إلى التقيد بالزمان، أو المكان، كما لا يحتاج فيها إلى طهارة الجسد، ولا إلى التعطل عن شؤون الحياة الأخرى، فيكون في خضم أعماله وهو في عبادة، ويكون في بيته مع أهله وهو في عبادة،



ويكون على فراشه مستلق على ظهره وهو في عبادة، وذلك من خلال عبادة التأمل في مخلوقات الله، وتحويل العادات إلى عبادات، من خلال استشعار رضى الله فيها، وسوف أتكلم عن هذين الأمرين في المطلبين التاليين:

عبادة التأمل: قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [المالك: 2]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِمًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المالك: 3-4]. المتأمل في أسلوب السورة يدرك بعد أدنى تأمل أن الله عز وجل بعد الحض على إحسان العمل بيّن مظهراً آخر من مظاهر قدرته، فذكر خلق سبع سموات طباقاً، للفت الأنظار إلى اتقان هذا الصنع، أمر بإرجاع البصر للتأكد من عدم وجود اضطراب ولا خلل في مخلوقات الله، ثم أمر العبد - إن كان في ريب منها - أن لا يقتنع بالرجعة الأولى فيتوقف بعدها ويجم بصره، بل يعاود ثم يعاود، إلى أن تتضح له الحال، ولا تبقى له شبهة في تحقق ذلك التناسب والسلامة من الاختلاف والشقوق بينها، حتى يتأكد أنه لا يمكن لأحد أن يعثر على شيء من فطور⁵⁶، وفي الأمر بإعادة النظر، وتكرار إعادتها مرة بعد أخرى تحدى الكافر على عناده والاستكبار، تأكيد وحث للمسلم على التبصر والتأمل والاعتبار، وهذا التأمل والاعتبار هو الذي أمرنا الله عز وجل به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما روت عائشة رضى الله عنها قوله: "لقد أنزل علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية كلها [آل عمران: 190-191]⁵⁷.
وحين البحث عن السر في هذا الاقتران نجد أن عبادة التأمل من أكثر العبادات توافقاً لإيصال الإنسان إلى مرحلة إحسان العمل، وذلك لعدة أمور:

56 انظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج4، ص576، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص19، و أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1365هـ، 1946م)، ج29، ص7.
57 الحديث بطوله، انظر: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، كتاب الرقائق، باب التوبة، ج2، ص387، رقم: (620)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم.



1. أن عبادة التأمل لا زمان يحدها، ولا مكان يحصرها، وهي تصح في جميع الأزمان، وفي جميع الأماكن، فمن صفات أولى الألباب أنهم يؤدونها في جميع أوقاتهم، يقول القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه" ⁵⁸.
2. أن عبادة التأمل تعلقها بالقلب، وشرف القلب على القلب معلوم، وأن المقصود منها حصول معرفة الله عز وجل، وما أجلها من مقصود، يقول أبو السعود رحمه الله: "فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح... فإن لكل من القلب والقلب عملا خاصا به فكما أن الأول أشرف من الثاني كذلك الحال في عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل" ⁵⁹.
3. الطاعة الحقيقية لله عز وجل متوقفة على عبادة التأمل، يقول أبو السعود رحمه الله: "وإنما طريقها النظري التفكير في بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر في آياته البينات المنصوبة في الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما في مطاوي الكتاب الحكيم من الأوامر والنواهي وغير ذلك مما له مدخل في الباب" ⁶⁰.
4. أن الاشتغال بالعبادات الأخرى بعد عبادة التأمل المؤدية إلى المعرفة بالله، واستشعار عظمته من خلال التعرف عليه بمخلوقاته الدالة على عظمته وقدرته أفضل وأجل من الاشتغال بها بدون ذلك.
5. الاشتغال بعبادة التأمل يخرج العبد من الجمود في دائرة المألوفات إلى ساحة التفكير فيما ورائها من العبر، فالحياة التي يعيشها الإنسان إذا لم يتأمل فيها تبدو له غاية الوجود، ونهاية المطاف، ولكن التأمل من خلال هدي القرآن الكريم يكشف له الستار عن عالم آخر، عالم الغيب الذي إذا بلغه المؤمن بإيمانه نال رضى الله وسعادة الدارين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الملك: 12]. وكذلك التفكير في الموت والحياة، والأرض والسماوات، والجبال الراسيات إذا تأمل العبد فيها انكشف له من أسرار الله في مخلوقاته، وأوامره، وقضائه ما يجعل استشعاره بعظمة الله في قلبه راسخاً، وإيمانه به قوياً، وفي سورة الملك من هذا الشيء الكثير.

58 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، ج4، ص310.

59 أبو السعود، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج9، ص3.

60 أبو السعود، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج4، ص187.



6. السعادة الحاصلة بسبب الاشتغال بعبادة التأمل ليست أخروية فحسب، بل تجتمع معها سعادة الدنيا أيضاً، وذلك لأن العبد حينما يفكر في هذه المخلوقات ليدرك قدرة الله وعظمته فيها يقف لزماً على خصائص هذه المخلوقات التي أودعها الله عز وجل فيها، وفي هذه الخصائص كثير من مصالح الإنسان الدنيوية، ففي النظر في الأعشاب تعرف على خصائصها التي منها علاج لأمراض الإنسان مثلاً، وفيها صلاح بدنه من الأمراض، وفي التأمل في الأرض والسماء، وفي الفضاء والخلاء وقوف على ما يعينه على عمارة الأرض وغيرها.

تحويل العادات إلى عبادات: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:15]. يحتاج الإنسان في حياته إلى وقت يصرفه في كسب معاشه، وقضاء حوائجه، ولا أجر له فيه، ولا وزر عليه، وبهذا الاعتبار لا يكون هذا الوقت داخلياً في العبادة التي هي المقصودة من هذه الحياة بالنسبة للإنسان، وحين التأمل في أسوب الآيات يظهر أن الله عز وجل أمر العباد بالمشي في الأرض: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، والأكل منها: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، وهما أمران طبيعيان لا يحتاج فيهما إلى الأمر مثلما يحتاج إليه بالنسبة للصلوات والزكوات وغيرها، ولعل السر في ذلك: تعليم للإنسان أن يجعل عاداته عبادات حتى تحسب له كل عمله عبادة، فيكون بذلك في كل شؤونه أحسن عملاً، والنيات كما قيل متجر الصالحين يحولون بها جميع عاداتهم إلى عبادات، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»⁶¹ ويمكن للإنسان أن يجعل بالنيات جميع عاداته عبادات، إذا استشعر طاعة الله عز وجل، والتزم بالصدق، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود، وعزم على ترك ما نهاه الله عنه من الكذب، والغش، والخداع، وغيرها، يكون كل عمله المباح عبادة، حتى يبلغ به درجة الصديقين والأنبياء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء»⁶²، وهذا التاجر حينما أراد اكتساب الحلال والاجتناب عن الحرام، فإنه أخرج عمله من عمل مباح إلى طاعة عظيمة أوصلته إلى هذه الدرجة العظيمة، وهذا ليس

61 انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، ج1، ص6، رقم: (1).

62 انظر: الترمذي، سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم إياهم، ج3، ص507، رقم: (1209)، وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الثوري عن أبي حمزة.



خاصا بعمل معين، بل كل عمل كبير وصغير يقوم به المؤمن يمكنه أن يصل به إلى درجة من الطاعة بحسبه، فعن أبي ذر رضي الله عنه، أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّون كما نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟ إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةٌ، وكلِّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكلِّ تهليلةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌّ عن منكرٍ صدقةٌ، وفي بُضْعِ أحدِكُم صدقةٌ»، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكُونُ له فيها أجرٌ؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ"⁶³.

الخاتمة ونتائج البحث

وفي الختام أحمد الله، وأشكره، وأصلى وأسلم على نبيه محمد وعلى آله، وصحبه أجمعين، وهذا عرض لأهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة المعنونة: الهدايا المتعلقة بإحسان العمل في سورة الملك، وهي:

- 1- أن سورة الملك بينت الهدف من خلق الموت والحياة للإنسان، وهو إحسان العمل.
- 2- إحسان العمل كلمة جامعة لمعاني عظيمة أشار إليها المفسرون عند بيانهم المراد من إحسان العمل، وهذه المعاني تشمل الصفات السلوكية، والجسمية، وكذلك الآثار، والنتائج المترتبة على الاتصاف بإحسان العمل، وكلما كانت هذه المعاني راسخة في العبد كلما كان أحسن عملاً.
- 3- أشارت السورة إلى أن مرتبة إحسان العمل المطلوب الوصول إليها هي مرتبة الخشية بالغيب، وهذا مطابق تماماً لحديث جبريل عليه السلام: قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»
- 4- عرضت السورة أنواعاً من الأعمال الحسنة، وهي: الإيمان بالله، والتوكل عليه، وشكره عز وجل على نعمه المتعاقبة على عباده.

63 انظر: أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ج2، ص697، رقم: (1006).

5- أشارت السورة إلى مجالين مهمين من مجالات إحسان العمل، هما: مجال عبادة التأمل في المخلوقات، ومجال تحويل العادات إلى عبادات.

المراجع

- القرآن الكريم.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: 691هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (ط1)، 1418هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، (ط دون)، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، (ط دون)، 1997م، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس.
- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت: 982هـ)، (ط دون)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الأملّي الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: د. عبد الله التركي، (ط1)، 1422هـ، دار هجر للطباعة، والنشر، والتوزيع والإعلان.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (ط2)، 1420، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: 489هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، (ط1)، 1418هـ، دار الوطن، الرياض - السعودية.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: 1371هـ)، (ط1)، 1365هـ، 1946م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- تفسير روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، (ط دون)، دار إحياء التراث العربي.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (ط2)، 1384هـ، دار الكتب المصرية - القاهرة.
- حاشية المطالب العالمة بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، (ط1)، من المجلد 1 - 11: 1419 هـ - 1998 م، من المجلد 12 - 18: 1420 هـ - 2000 م، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع.
- الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: 360هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير، (ط1)، 1405 - 1985، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان.
- زاد المسير في علم التنسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: 597هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (ط1)، 1422هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
- زهرة النفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت: 1394هـ)، (ط دون)، دار الفكر العربي.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي (ت: 279هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، (ط2)، 1395هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم الدارمي، البستي (ت: 354هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (ط2)، 1414 - 1993، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: 256هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (ط1)، 1422هـ، دار طوق النجاة.
- صحيح مسلم، أبو الحسن، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد

- الباقي، (ط دون)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، (ط1)، 1403هـ، دار الكتب العلميّة بيروت - لبنان.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت: 538هـ)، (ط3)، 1407هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: 427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، (ط1)، 1422هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- اللباب في علوم الكتاب، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: 775هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (ط1)، 1419هـ، دار الكتب العلميّة - بيروت، لبنان.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن عطية الأندلسي الحاربي (ت: 542هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (ط1)، 1422هـ، دار الكتب العلميّة - بيروت.
- معاني القرآن للأخفش، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (ت: 215هـ)، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، (ط1)، 1411 هـ - 1990 م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- المنتخب من مسند عبد بن حميد، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكسبي ويقال له: الكسبي بالفتح والإعجام (ت: 249هـ)، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، (ط1)، 1408 - 1988م مكتبة السنة - القاهرة.
- موسوعة فضائل سور وآيات القرآن - القسم الصحيح، محمد بن رزق بن طرهوني، (ط)، الجزء الأول (الأولى، 1409 هـ) - الجزء الثاني (الثانية، 1414 هـ) الجزء الأول (دار ابن القيم، الدمام) - الجزء الثاني (مكتبة العلم، جدة).
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي (ت: 468هـ)، تحقيق: جمع من المحققين، (ط1)، 1415هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.